رِسَالَة من الصديقين (أوبرماير)

أَوَّلُ ما فكرتُ فيه عند انتهائي من كتابي هذا هو أنْ أخصص مساحة لزميليَّ فريدريك أوبرماير وباستيان أوبرماير، الصحافيين في صحيفة «زود دويتشي تسايتونغ» الألمانية، اللذين تواصل معهما المصدر الَّذِي سَرّب لنا هذه البَيَانَات. طلبتُ منهما أنْ يكتُبا رِسَالَة إلى القارئ العربي لأضيفه إلى هذا الكتاب ليكون توثيقًا لتجربتنا جميعًا في رحلتنا مع «وَثَائِق بَنَمَا» منذ كَانَت مجموعة ضخمة من الوَثَائِق، أمضينا شهورًا تائهين في فرزها وترتيبها، وحَتَّى أصبحت واحدة من أَهَمِّ التَّحْقِيقات في تاريخ الصحافة العالمية، وعلامة فارقة في تاريخ العمل الجماعي بَيْن مُؤَسَّسَات إعْلاَميَّة وصحافيين يتحدثون لغات مختلفة، ويكتبون لقراء مختلفين، ونجحوا في النهاية في التغلب على حاجز اللغة، وفارق التوقيت، وترتيب الأولويات المتفاوتة، وترويض الرغبة في السبق لصالح المجموعة، وقبل هذا وذاك.. السرِّية المُطلقة طيلة ما يزيد على العام، فكَانَ هذا التَّحْقِيق هو الثمرة، وهذا الكتاب هو التلخيص البسيط لمجهودات ربما نحتاج إلى استرجاعها يومًا ما.

كان فريدريك وباستيان على الموعد دائمًا، وكتبا سويًا هذه الرِسَالَة التي رأيتُ أنْ أستهلَّ بها هذا الكتاب.

- مرحبًا

- أنا «جون دو»..هل لك فى بعض المعلومات؟ أنا مستعد أن أشاركها معك.

في سَهْرَة شتويَّة منذ عِدَّة شهور، تواصل معي مصدر مجهول، مستخدمًا تلك الكلمات ليعرض علينا بعض المعلومات، لَمْ يكن لدينا القدرة على التكهن عن ماهية ما سيحدث لاحقًا، لا نحن، ولا ذاك المصدر أيضًا. الحال نفسه مع الشخصيات السِيَاسِيَّة الَّذِين ارتبطت أسماؤهم إلى الأبد بدفينة المعلومات التي أسميناها «وَثَائِق بَنَمَا».

بالعودة لهذه الليلة، بدا لنا وكَأَنَّه شخص ما يحاول أنْ يسلِّمنا بعض المعلومات، لكن ثَمَّة ملابسات عديدة جَعَلت من هذه القِصَّة استثنائِيَّة منذ اليوم الأول.

على سبيل المثال، كَانَ من الواضح أنَّ المصدر المتخفي خلف اسم «جون دو» يعيش حالة من الذعر من أنْ تؤدي هذه المعلومات إلى قتله في النِّهَايَة. كَانَ علينا توخي العديد من سبل التأمين، استحوذ الحديث عن مخاوف مصدرنا على أغلب محادثاتنا، لَمْ يكن كلانا (باستيان وفريدريك) معتادًا على منحها هذا الكم من الاهتمام في السابق.

لم نكن مُعتادين على مثل هذا الحجم من البَيَانَات التي تحمل في طياتها العديد من القصص التي لا تُصدَّق. كُنَّا كُلَّما بحثنا عن كلمات مِفْتَاحية في البَيَانَات نجد شيئًا مثيرًا للانتباه، قِصَّة جيدة، رئيس دَوْلة آخر، اسم كبير آخر، حالة نصب أخرى، خرق عقوبة أخرى، لقد كَانَ شيئًا لا يُصدّق. لَمْ نثق في المادة لعدَّة أسابيع، كَانَت تبدو جيدة جِدًا أكثَر مما كنا نتصور، ورغم ذلك قمنا بمراجعتها واختبارها مرة تلو أخرى حَتَّى تأكدنا من صحتها كلية، في النِّهَايَة لَمْ يستطع «فلاديمير بوتين» نفسه أنْ يطعن فيها،

وأقرَّ بأن المعلومات الواردة فيها صحيحة.

بعد ذلك تأتي حقيقة أنَّ معظم القصص التي وجدناها كَانَت قصصًا عالمية، مُتَّصِلة بفضيحة ما في إفريقيا، الشَّرْق الأَوسَط أو أمريكا الجنوبية. كَانَ ذلك شيئًا جديدًا بالنسبة لنا، صحيح أنَّ «زود دويتشي تسايتونغ» هي أكبر صحيفة مطبوعة في ألمانيا، لكننا عادة ننشر قصصنا بلغتنا فَقَط، ولجمهورنا داخل نطاقنا الجغرافي، أمَّا هذه المرة فإنَّ معظم القصص لا علاقة لها ببلدنا، لَمْ يكن هذا يروق لرؤسائنا حقيقةً ولا لنا أيضًا؛ إذ إنَّ قُرَّاءنا أَلَمان، وفي نفس الوقت كَانَ مِنَ المُخْجل أنْ نَتْرُك كلَّ هذه القِصَص التي وجدناها حول العالم غَيْرَ محكيَّة، وبالتالي قرَّرَنَا مُشَارَكَة المعلومات مع الاتحاد الدُوَلي للصَحَفِيين الاستقصائِيين (ICIJ)، والَّذِي قام بدوره بمشاركة ما أَسْمَيْنَاه «وَثَائِق بَنَمَا» مع المُحقّقين حول العالم، كَانَت القِصَّة أكبر منَّا نحن الاثنين، وكَانَت كَمَا وصفتها زَميلتي الأرجنتينيَّة «مارينا والكر» نَائِب رئيس الاتحاد الدُوَلي «قِصَّة مُهِمَّة جِدًا لأي مؤسسة إعلامية، وأكبر من أن تتعامل معها وسيلة إعلامية واحدة».

الأمر الَّذِي بدا لنا مزعجًا في البداية، وهو أنَّ الموضوع متعلق بالعالم أكثر من ألمانيا، تحول ليصبح أروع جانبًا في هذا التَّحْقِيق، فقد قابلنا العديد من الزملاء الممتازين الشجعان في العالم كله، وأصبح الكثير منهم أصدقاءنا.

بدأ التعاون فور أنْ أجرينا أَوَّل اتصال مع «جيرارد رايلي» رئيس الاتحاد الدُوَلي للصحافيين الاستقصائيين، أخبرناه بأنَّ لدينا شيئًا لنشاركه، وأطلعناه على التفاصيل، أتى «جيرارد» إلى ميونخ، وبصحبته فريق المعلومات خاصته، وبنِّهَايَة يونيو/ حزيران ٢٠١٥ عقدنا أَوَّل اجتماع

لنا في واشنطن، حَيْثُ شرحنا ما لدينا بإطلالة على البيت الأبيض. وفي سبتمبر استضفنا اجتماعًا كبيرًا في ميونخ، ودشّنّا غرفة أخبار افتراضية على موقع عالي التأمين مشابه لـ«فيسبوك»، بحَيْثُ تمكّن الجميع من نشر ومشاركة كلِّ جديد يعثرون عليه، وبسبب اختلاف المناطق الزمنية المشاركة كَانَ موقع البحث نشطًا على مدار ٢٤ ساعة يوميًا لعدَّة شهور.

استمر العمل كذلك حَتَّى نشر جميع الصَّحفِيّين المشاركين معنا تحقيقاتهم في جميع أرجاء المعمورة بصورتها النهائِيَّة، من بينهم روسيا، إيطاليا، جنوب إفريقيا، أستراليا، الهند، باكستان، اليابان، وبالطبع الشَّرْق الأَوسَط.

كَانَت أمريكا الجنوبية في قلب تحقيقنا، كَانَ معنا العديد من المحققين الرائعين من تلك المنطقة، على سبيل المثال: بيرو، إكوادور، البرازيل، الأرجنتين، تشيلي، أوروغواي، المكسيك، وحَتَّى من بَنَمَا، ربما كَانَ على عَاتِقِهم أَصْعَب المَهَام ضِمْن فريقنا؛ إذ كَانَ الضغط الواقع عليهم كبيرًا، وبعد النشر اضْطُرَّ بعض الصَّحافِيّين لارتداء قميص واقٍ من الرصاص، والعمل من أماكن بعيدًا عن الأعين، حَتَّى إنَّ بعضهم فَقَدَ وظيفته بعد النشر، وما يدعو للحُزن أنَّهم لَمْ يكونوا الزملاء الوحيدين الَّذِين تلقوا تهديدات بعد نشر مقالاتهم عن وَثَائِق بَنَمَا، الموقف في روسيا، تركيا وبعض البلاد الأخرى كَانَ مشابهًا، لكن لَمْ يكن العنف والتهديد هما فَقَط تبعات هذا التَّحْقِيق، إذ وجدنا تفاعلًا من رئيس الوِلاَيَات المُتَّحِدَة الأسبق «باراك أوباما»، والرئيس الروسي «فلاديمير بوتين»، وإنْ اختلفت رُدُود فِعلَيهِما.

رأينا موجة من القوانين الجديدة تخرج للنُّور، وانتفض العالم للقضاء على جنَّات النَّعيم الضَريبي، ربما للمرة الأولى. رأينا كذلك مظاهرات حاشدة مثلت رد فعل شعبيًا للتحقيق فور النشر في أَبْرِيل/ نَيْسَان ٢٠١٦، خرجت تلك المظاهرات في عدد من البلدان من بينها الأرجنتين (حَيْثُ تورطت رئيستها)، وفي باكستان (حَيْثُ ظهر أبناء رئيس الوزراء نواز شريف على السطح)، وفي بريطانِيا (حَيْثُ برز والد رئيس الوزراء الأسبق ديفيد كاميرون)، وكذلك في مالطا وطبعًا في أيسلندا.

استقال عقب الموجة الأولى العديد من المَسْؤُولين المُتَوَرِّطين في أيسلندا وإسبانيا وهولندا وبلدان أخرى. وفُتِحَت تحقيقات جادَّة في الوِلايَات المُتَحِدة وأَلمَانيا وفِنْزويلا والدِّنْمَارك وأُسْتُراليا وحَتَّىَ في بَنَما.

لو أن شخصًا ما أخبرنا قبل أنْ نَتلقىَ ذاك الاتصال مِن «جُون دُو» بأنَّ مجموعة من الصحافيين سوف يفعلون كلَّ هذا يومًا ما، كنَّا بالتَّأكيد سنسخر منه، كَانَ ذلكَ ضربًا من المُستحيل.. لكنَّه تحقق.

كَانَ هذا الحدث نعمة عظيمة، ليس فَقَط للصحافيين المشاركين في التَّحْقِيق، ولكن للشعوب أيضًا، الآن صرنا نعرف كيف يُخفي الحكام المستبدون أَمْوَالهم، رؤساء لا يزالون في السلطة، رؤساء حكومات، عصابات المخدرات، مُمَوِّلي الإِرْهَاب، تجار الأسلحة، المُتَهَرِّبين من الضَّرَائِب والمجرمين الآخرين، كُلّ هؤلاء الَّذِين اتفقوا على إخفاء ثرواتهم في جَنَّات النَّعِيم الضَّرِيبي، مستغلين غطاء السرِّية الَّذِي توفره شَرِكَات «الأوف شور» لطمس جرائمهم، كُلّ مخالفات هؤلاء صارت الآن تحت تصرّف الشعوب.

لا بد من وضع حد لجميع المعاملات غَيْر الْقَانُونية، والفرصة الآن سانحة لسنّ قوانين أفضل ضد الجرائم الماليَّة وتطبيقها دون تلكؤ.

وبالرغم من أنَّ هناك عشرات الأسماء من منطقة الخليج والدُوَل العَرَبِيَّة ظهرت في «وَثَائِق بَنَمَا»، كما سيتضح لكم في هذا الكتاب، فمن الغريب أَنَّنَا لَمْ نسمع عن أي تحقيق في هذه المنطقة حَتَّى الآن.

فريدريك أوبرماير وباستيان أوبرماير

مِيُونِخ، مَارِس/ آذَار ٢٠١٧

obeikan.com